﴿ كلمـــة ﴾

أحبائي أطفال العروبة والإسلام ... أحبائي أبناء غزة الأبطال

كاتبتنا شقيقتي روضة، عاشت منذ طفولتها تحلم بكل ما تحلمون به أنتم الآن؛ من عيش كريم وتحرر وكرامة. لقد شاركت روضة بالجهاد مثلكم تماماً في مظاهرات شوارع مدينة رام الله وعمَّان وأثناء دراستها في القاهرة، وفي كتاباتها بعمَّان وبمعارض كتبها في أنحاء الوطن العربي والإسلامي. تشحذ الهمم لتبقي شعلة الأمل مضيئة، إنها ونحن معها، بكم واثقون وبالله مؤمنون أن النصر آت من عنده.

أبناء وطننا الأسير في غزة، حجارتكم، جوعكم، ثباتكم، أمراضكم، صمودكم، جروحكم، إيمانكم، كلها مصادر إلهام وعزّة للنفس الذليلة خارج أرض المجابهة. لقد أصبحنا في وقت أصعب ما فيه هو الحفاظ على المبادىء التي نؤمن بها والإسلام الذي ننتمي إليه.

يقول سيد آل هاشم محمد (ﷺ) «سيأتي زمن على أمتي الممسك على دينه كالقابض على الجمر».

ان الظلام حالك، ولكن شعاع الأمل لا يزال ينطلق من غزة كل يوم ليمر بأهلنا في قرى ومدن فلسطين وليلتقي مع شعاع الأمل من جنوب لبنان الجريح.

ان أشعة الأمل في قلوبنا جميعاً حبيسة النفس رغم مرارة الحياة وقسوتها، ستنطلق يوماً لتحرق المتغطرسين الصهاينة بإذن الله وتعود لغزة قواربها مليئة بالخير من بحر العرب.

صبراً آل غزة هاشم فلا شك أن موعدكم الجنة والنصر.. ساعدونا بثباتكم وشدّوا من هممنا بتضحياتكم وإننا بالله مؤمنون.

دبي ٢٧ / ٧ / ١٩٩٣ — **الدكتور محمود فهيم الفرخ**

من قصص الانتفاضة
في غـزة

الملثم وجريمة الأحد الأسود

تأليف:
روضة الفرخ الهدهد

رسوم: راشد الكباريتي
تدقيق النص: الاستاذ الشاعر عبد العزيز أبو غوش

في بيت صغير في غزة، تجمعت أم يوسف وعمته وزوجته والجيران، إثر سماعهم بالحادث المروّع للعمّال العرب في مستعمرة "ريشون ليتسيون" في "وادي حنين" قرب "عيون قارة"..

جلست النسوة على الارض واحتضنت احداهنّ المذياع تحرّك مؤشّره هنا وهناك .. وجلست على كرسيٍّ صغير أحمل آلة التصوير وأوراقي.. فقد جئت إلى بيت يوسف هذا لأعرف قصته وقصة العمّال العرب الذين تعرّضوا لحادثة مذبحة العمال يوم الأحد الأسود، لأنشرها في الجريدة التي أعمل بها..

كانت أحدى النساء الباكيات تضرب كفيها ببعضهما البعض وتقول:

– *آخ يا عمتي يا يوسف.. آخ.. الله يقطع اليهود ويومهم.. شو اللي صار لك منهم.. من يوم ما كنت صغير كنت راح تموت على ايديهم.. وكان لك عمر فعشت الى اليوم فهل ستموت اليوم على ايديهم؟*

ومسحت امرأةٌ عجوزٌ عينيها وأنفها بشاشتها البيضاء وقالت:

– *والله ما عادت عيشةُ أهل غزّة عيشة.. اي لو اليهود تقتل يوسف وأمه وأولاده مرّة واحدة.. مش كان أحسن؟.. شو معنى الحياة اللي بنعيشها؟*

وارتفع صوت الفتاة التي كانت تحتضنُ المذياع وقالت صارخة:

– يا جماعة.. منذُ الصّباح وأنا أتابعُ الأذاعات لأسمع أخبارنا فيها.. وقد أذاعوا أخبار كلّ المدن والمخيّمات والقرى في فلسطين إلا أخبار غزة.. فلماذا يا ترى؟..

ورانَ الصَمتُ وخيَّمَ الهدوءُ وتوقَّفت النسوةُ عن البكاء والحديث والتسبيح والدُّعاء، واتجهت الأنظارُ إلى الصحفيَّة الشَّابة .. وفجأةً دخلَ أحمد راكضاً وهو يقول:

– لقد أعلنوا غزَّة "منطقةً عسكريةً مغلقةً" .. أغلقت القوَّاتُ الأسرائيليَّةُ كلَّ مداخل غزَّة.. ومنعت الصحفيينَ والمصوِّرين منْ دخولها أو الخروج منها.. ومنعت خروجَ أيِّ أخبار منها للعالم..

وتململَت المرأةُ العجوزُ في جلستها ثم قالتْ بهدوء غريب:

– *يعني هيك.. أعلنوا غزَّة منطقة عسكرية مغلقة.. هم ودباباتهم يدوروا ويلفوا في شوارعها. واحنا ننحبس في بيوتنا.. طبعاً... يا حسرتي عليكم يا أولاد.. شو صار فيكم؟ وكيف بدنا نعرف أخباركم..؟*

وقامت عمَّةُ يوسف واقتربتْ مني وقالت:

– أعطيني يا بنتي الكاميرا والأوراق خلّيني أخبيهم لك تحت الفراش.. وخذي هالفتسان إلبسيه .. فيمكن قعدتك معنا تطوّل إلى أن يفك منع التجول..

وبقيتُ في منزلِ يوسف بينَ أمِّه وعمته وأولاده وجيرانه عشرةَ أيامٍ كاملة، أسمعُ وأسجّلُ ما يقولون عن يوسف وغزة والأخبارَ قديمها وجديدها...

قالَت عمّةُ يوسف:

– منذُ وصلنا هذا المكان في غزة وحياتُنا تغيَّرت.. منذ عام ١٩٤٨ عندما لجأنا الى هذه المنطقة لم نعرف السَّعادة.. كانت حياتُنا وحياةُ يوسف معرّضة لمثُل هذا الحادث منذُ ذلك الحين.. في تلك الايام لم يكن عمر يوسف أكثر من سنتين عندما هزَّ الإنفجارُ الكبيرُ مدينةَ غزّة.. كان بين يدَيّ وعلى صَدْر أمّه وفي حضن أبيه يهتزُّ ويرتَعشُ ويبكي ويصرُخُ دون وعي.. كنا لا نزالُ نسكنُ خيمةً عندما هزّتنا الأنفجارات وصمَّ آذاننا أزيز الرصاص ودويُّ القنابل ، انفجاراتٌ لا تتوقف ويوسف لا يسكت.. طفل صغير لا يفهم ما الذي يجري حوله..

كانت اسرائيلُ يومَها قد أرسلتْ جيشَها لمحاربة غزة.. وكان في غزةَ في ذلك الحين بالإضافَة إلى سكّانها، آلافُ اللاجئين الفلسطينيين الذين وصَلُوها عن طريق البرِّ والبحر هرباً من قنابل وقذائف ورَصاص اليهود وكانت فيها قوات عسكرية مصرية.. وقد دَخَل الجيشُ الاسرائيليُّ غزّةَ فنسَفَ محطةَ المياه الكبرى فيها وزَرَعَ الألغامَ في الطُّرق وضرب القوّات العسكريةَ المصرية.. وظلّت غزةُ دونَ ماء أياماً طويلةً.. وظلَّ يوسُفُ مريضاً بالحمّى أياماً طويلةً.. أما أبوه..

وسكتت العمّةُ وسكتَ الجميع وارتفع صوتُ نحيب أم يوسف فتساءَلتُ في حيرة..

– وماذا عن أبيه.. ماذا فعلَ أبو يوسف؟

وبلعت عمة يوسف ريقها وقالت بعزة وكبرياء..

– انضمَّ للفدائيين وصار فدائياً .. كان وضعنا يصعب على الكافر، ثلاث أو أربع عائلات في خيمة صغيرة.. بُعد عن الارض والوطن ...فقر وشقاء وأحلام بالعودة إلى بيوتنا في فلسطين.. فلما أعلنَ " جمال عبد الناصر " زعيم مصر عن تنظيم مجموعات الفدائيين، انضمَّ أخي أبو يوسف للفدائيين وصار يغيب عن عائلته أياماً وأسابيع..

– وأين كانَ يغيبُ؟

– كان " جمال عبد الناصر " يعطي الأسلحة والذخيرة للفدائيين وكان الفدائيون يدخلون فلسطين المحتلة في الليل .. فهم يعرفون طرقها وجبالها وسهولها وهضابها.. وصار أخي أبو يوسف يغيب كثيراً قرب بيوتنا ومزارعنا، في أراضينا، ويقوم بعمليات فدائية ضد مراكز الجيش الاسرائيلي ومستعمراته. وفي احدى المرات غاب ولم يعد.. أتدرين أين استشهد؟

– أين؟

– لو قلتُ لك فلن تصدّقي ذلك..

– أين؟

– في نفس مستعمرة ريشون ليتسيون..

وارتفع صوتُ نحيب أمّ يوسف وجاراتها.. بينما تساءلتُ..

– في المكان الذي ...؟

– نعم في المكان الذي وقع فيه حادثُ المذبحة ليوسف ولرفاقه العمّال العرب اليوم.. في المستعمرة التي بناها اليهودُ على أنقاض بيوتنا في وادي حنين قرب عيون قارة..

ونهضتْ أمّ يوسف من مكانها وأخذتْ تتظاهرُ بترتيب الفراش وهي تبكي ..أدارت لي ظهرها وهي تنشجُ وتقول:

– *يا خوفي يمه يا يوسف تكون مع المصابين أو القتلى.. يا خوفي يكونوا قتلوك وأنت بتبني في بيوتهم وما بتتدخل فيهم..*

وسألتُ باستغراب:

– يبني في بيوتهم؟! ألمْ يكنْ كوالده؟..

وتنهّدتْ أمُ ابراهيم عمّةُ يوسف وهي تقول:

– *يوسف يا بنتي ما كانش زي أبوه.. يوسف كان عامل وما وصلْ الى العمل في بناء مستعمرات اليهود إلا زي ما وصل اليها كثير من أبناء غزة.* وأنا سأحدثك عن يوسف وعن قصص العمال العرب أبناء غزة.. سأحدثك عن تعبنا ومشاكلنا مع قوات الاحتلال الاسرائيلي.. سأحدثك عن الانتفاضة وأبطالها لتعرفي وضع غزة وقطاعها..

○ ○ ○

على مدِّ البصرِ في غزَّةَ، تنتشرُ أشجارُ البرتقالِ " والجريبفروت " والليمون.. هكذا هي بياراتُ غزَّةَ وما حولها، آلافُ الدونماتِ تملؤها أشجارُ الحمضياتِ اليانعةُ طوالَ العامِ، في الصيفِ والشتاءِ، تبقى أشجارُ الحمضياتِ تحملُ أوراقَها الخضراءَ اليانعةَ، فإذا ما جاءَ الربيعُ، امتلأَ الشجرُ بالأزهارِ وفاحت الروائحُ العطريَّةُ تملأُ الجوَّ بأحلى العطورِ.. وإذا ما جاءَ الصيفُ انعقدَ الثَّمرُ، فتدلَّى عَنَ الشَّجرِ أصفرَ أو برتقالياً أو أخضرَ .. ليموناً وبرتقالاً وجريبفورت.. فإذا ما جاءَ الشِّتاءُ انْطَلَقَ الرِّجالُ والنِّساءُ والأطفالُ يقطفونَ الثَّمرَ ويجنونَ المحصولَ.. يُجْمَعُ الثَّمَرُ ليباعَ في أسْواقِ فلسطينَ والأردنِ والدُّولِ العربيةِ ودولِ أوروبا أيضاً.. حمضياتٌ مشهورةٌ يُحبها كلُّ الناس..

وأطفالُ غَزَّةَ يفرحونَ بموسمِ الخيرِ والعطاءِ وقَطْفِ الثِّمارِ.. فيحملونَ زوَّادتَهم في الصَّباحِ الباكرِ ويذهبونَ مع أهلهم إلى البَياراتِ لقطفِ الثِّمار..

((وعندما استشهدَ أخي أبو يوسفَ كما قلتُ لكَ في عمليةٍ فدائيةٍ في فلسطين، اضطرَّ ابنُهُ يوسُفُ أن يترُكَ مدرستَهُ ليساعدَ أمَّهُ وأخواته في لقمةِ عيشِهم.. كانَ يوسفُ ضعيفَ البُنْيةِ، فالأحداثُ التي عاشَها وهوَ صغيرٌ والحُمَّى التي أصابتهُ وقلَّةُ الطَّعامِ التي عانينا منها جميعاً في أوَّلِ هجرتنا، جعلت منهُ فتىً نحيلاً، ومع ذلك فقد تَرَكَ يوسُفُ المدرسةَ واتجهَ للعملِ مَعَ عمِّهِ في احدى البيَاراتِ، كانَ يوسُفُ يحبُّ الذهابَ مع عمِّهِ الى البيارة... كان يحسُّ أنَّهُ ذاهبٌ لرحلةٍ وليس إلى عمل.. وكانَتْ أُمُّهُ تحضِّرُ له " الزوادة " منَ الأكلِ والشَّرابِ فيقضي طيلةَ النهارِ في البيارة، يقطفُ البرتقالَ حيناً، ويأكُلُ حيناً ويلعبُ أحياناً.. وهناكَ التقى يوسُفُ مع ابن صاحبِ البيارة: "حسَونة" وكانَ الاثنانِ يقضيانِ أجملَ الأوقاتِ في البيَارةِ وقد نشأت بينَهماصداقةٌ قويةٌ ازدادت في ذلك النَّهارِ الذي عوقب فيه كلاهما عقاباً شديداً..))

قالَ حسّونة:

– أترى ذلك الكومُ منَ البرتقالِ يا يوسُف؟

– نعم..

– سأختبئُ داخلَهُ على شرط أن لا تقولَ لأحدٍ عن مكاني..

– وكيفَ ستدخُلُ داخلَهُ؟

– لن أدخلَ.. بل ستُساعدَني أنْتَ على ذلك...

– وكيف؟

– أنامُ على الأرض.. وتضعُ أنتَ أكوامَ البرتقالِ فوقي.. حتى لا يظهرَ من جسدي رِجْلٌ أو يدٌ..

– وكيف تتنفس؟

– لا تخف، أدبّرُ نفسي.. لن يحصلَ لي شيء..

– على مسؤوليتكَ؟

– نَعَمْ، على مسؤوليتي..

– اذن هيا بنا..

ونامَ حسّونة ابن صاحب البيارة على الأرض، وابتدأ يوسُفُ يحملُ أكوامَ البرتقال ويُلقيها عليه..

كانَ يوسفُ خائفاً... فهل سيتحمل حسونة وزنَ البرتقال فوقَ بطنِه؟ وهل سيستطيعُ التنفُّس حقّاً؟

لذلكَ ومَعَ كلِّ كوم جديد كانَ يوسفُ يسألُ حسّونة:

– هل أنتَ بخير؟

– نعم..

– هل أضعُ المزيد؟

– نعم.. طبعاً.. أحسّ أن قدمي ما زالتا معرّضتين للهواء.. لا تترك شيئاً من جسدي دون تغطية..

وانْصاع يوسف للأمر ولكن بخوف.. وارتفع الكومُ وصوتُ حسونة ما يزال يردد.. ضعِ المزيد.. وفجأة؛ وبعدَ أن أرتفعَ الكومُ أمتاراً إذا بعمٍّ يوسف ينادي عليه زاجراً..

– يوسف .. أينَ أنتَ يا يوسف.. لماذا لا تساعدُنا.. تترُكُنا نحملُ صناديقَ البرتقال للشاحنات وأنتَ تلعَبُ وحدَكَ هنا؟..

ولم يستطع يوسفُ أن ينبس بحرف، فلقد لكزَ العمُّ ابن أخيه لكزة قويّةً ودفعَهُ أمامهُ بغضب.. وطلبَ منهُ السير أمامهُ إلى الشاحنات..

حمل يوسفُ صناديقَ البرتقال مع عمّه والعمّال إلى الشاحنة الأولى، ثمَّ الثانية ثمَّ الثالثة والرابعة.. وهو في كلِّ لحظة يريدُ أن ينطلق من بين أيديهم ليطمئنَّ عن صديقه حسّونة.

وكادت الشمسُ تميلُ إلى المغيب.. وبدأ العمّالُ استعدادهم للرّحيل.. ووقفَ يوسفُ متسمّرا لا يتحركُ.. ودفعهُ العمُّ.. فلمْ يتحرّكْ.. وفجأةً أقبلَ صاحبُ البيارة صارخاً مستنجداً..

- هل شاهدَ أحدُكم حسّونة؟

وأجابَ الجميعُ بالنفي: وظلّ يوسفُ ساكتاً لا يتحرّكُ...

كيفَ يقولُ لهم عن مكانِ حسّونة وهو لا يعرفُ إن كانَ لا يزالُ هناك حياً أم لا؟

ومضى الرّجالُ جميعا يبحثونَ عن حسّونة داخلَ البيارة.. ويوسفُ يرتعدُ خوفاً على صاحبه، ومنْ والد صاحبه..

وتحرّكَ يوسفُ إلى كوم البرتقال، ووقفَ ينادي حسّونة، ولمْ يُجبْ حسّونة على ندائه: ونادى بصوت أعلى ولم يُجبْ.. وكاد قلبُهُ يتوقّفُ.. هل ماتَ حسّونة؟..

وأخذ يوسفُ يعملُ بكلتا يديه ورجليْه في إزاحة أكوام البرتقال.. وبدأت أطرافُ حسّونة بالظهور.. ولكنه لمْ يتحرّكْ.. وهجم الأبُ على ابنه!!

استيقظ حسونة على منظر عشرات الرجال وقد تجمعوا حوله يحاولون إيقاظه.. لم يكن يفهم ما يجري.. فلقد كان يغط في نوم عميق.. وتنفس يوسف الصعداء وهو يشاهد زميله يفرك عينيه بيديه، ثم أطلق ساقيه للريح..

ظلت تلك الحادثة في ذهن يوسف وحسونة، وربطت بينهما وزادت من صداقتهما حتى كبرا فلما كبرا واستلم حسونة مسؤولية البيارة، ظل يوسف يعمل معه. وقد أحبا البيارة وشجرها وبرتقالها وليمونها.. وكان يوسف ينظم عملية قطف الحمضيات واستئجار الشاحنات، ويتعاقد لبيع البرتقال في الأسواق المحلية والعربية والعالمية..

ولكن الجيش الاسرائيلي عاد واحتل غزة عام ١٩٦٧، واحتل أجزاء من أراضي مصر.. ومن أراضي دول عربية أخرى في الأردن وسوريا..

ومنذ دخل الاحتلال الاسرائيلي غزة ازدادت مشاكل أهل غزة.. مشاكل في كل يوم، وفي كل مكان، في غزة ومخيماتها، في مدارسها وبياراتها، في جوامعها وطرقاتها في الدكاكين والمحلات وفي الزراعة والتجارة. مشاكل لها أول وليس لها آخر..

قال يوسف لحسونة..

لقد عادت كل الشاحنات المحملة بالحمضيات إلى البيارة اليوم..

– ولماذا؟

– لقد أصدرت حكومة "اسرائيل" قراراً بمنع بيع البرتقال والليمون والجريبفروت الغزاوي في أي مدينة أو قرية في الضفة الغربية..

– وأينَ نبيعُهُ إذن؟

– الحاكمُ العسكريُ يقول: تلكَ مُشكلتُكم أنتمْ وليستْ مشكلتَهُ هو..

– ألمْ يُعْطِ المبرِّرَ والسببَ لقراره هذا؟

– ليسَ هناك مبررات أو أسباب.. وهي ليست مشكلتنا نحنُ فقط، فكلُّ أصحابِ البيارات عندَهم المشكلةُ نفسُها وقد عادتْ جميعُ الشاحنات إلى البيارات.. وتألفت لجنةٌ من أصحاب البيارات لمُتابعة الامر لعلّنا نجدُ حلاً بتصريف انتاجنا..

وظلّتِ الشاحناتُ متوقّفةً في البيّارة وعلى ظهرها صناديقُ الحمضيّات.. وجاء أصحابُ الشاحنات يطلبونَ أجرةَ تعطيل شاحناتهم..

– وما الحلُّ يا يوسف؟..

– ننزِّلُ الصناديق..

وأنزلَ الرّجالُ الصناديقَ ورتّبوها في مدخل البيّارة.. وظلّوا ينتظرون..

وابتدأَ العفَنُ والتّلفُ يصيبُ هذا الصندوقَ وذاك.. حبّةٌ هنا وحبّةٌ هناك.. وتدارسَ الرّجالُ الامر فقال يوسف:

– أرى أن نفرّغَ الصناديقَ على الارض "ونبرّ" الحبّات العفنة منها.. فالحبّةُ المتعفّنةُ تعفّنُ كل حبّات الصُّندوق..

– وهو كذلك.. هيا بنا..

وكُوّمتْ أكوامُ البُرتقال على الارض وابتدأتْ عمليةُ عزْل الحبّات المتعفّنة ورميها..

وفي كلِّ يوم كانت أكوامُ البُرتقال الصالحِ تنقصُ وأكوامُ البرتقال المتعفّنِ تزيدُ..

وفي كلِّ يوم كانَ حسّونة ويوسف يُراجعان مع المئات من أصحاب البيّارات الحاكمَ العسكريَّ الاسرائيلي علّه يجدُ لهم مخرجاً..

– تعفَّنَ كلُّ البرتقالِ والجـريفورت والليمون يا حسَونة.. لم يبقَ من محصـوله هذا العام حبةٌ واحدةٌ.. لقد نجحوا في مخططهم!!

وردَ حسَونة بأسى..

– فعلاً نجحوا يا يوسف .. ألوف الأطنانِ من حمـضيات بيّارتنا والبيّارات المجاورة قد رُميت لألسنة النّيرانِ أو في البحـر.. مَنَعوا تصديرَ الحمضيّات إلى الأردنّ أو بيـعه في فلسطين.. منعوا تصديرَهُ للخارج.. مخططٌ كبيرٌ كي نخسرَ.. وقد خَسرنا.. اللّهُ أكبرُ عليهم.

– المهم أن لا نيأسَ .. ولعلّ اللّهَ يعوّضُنا في الموسم القادم..

بعدَ أسـابيع استدان حـسَونة بعضاً من المال لشـراء الأسمدة للبيـارة وبدأ الاثنان في العمل الجادِّ لحرْث الأرض وتسميدها، استعداداً لمحصول العام القادم..

وانتظرَ الرّجالُ كثيراً.. سـائقو الشاحنات، عمّالُ القطاف، أهلُ يوسف وزوجته وأولاده.. أهلُ حسَونة وزوجته وأولاده.. أصحابُ البيّاراتِ القريبة، كلُّ النّاس كانوا ينتظرون المَوسمَ القادم..

وامتلأ الشّجَرُ بالزّهر.. وعبقت الروائحُ فملأتْ سَماءَ غزّة، وانتعشَت الآمالُ في النُّفوس، ولكنَّ المشكلةَ كـانت في الصيّف.. ففي عـزِّ أيّام الصّيف الحارّ، قطعت الحكومـةُ الإسرائيليـةُ المياهَ عن غزّة.. كانت محطةُ المياه الكبرى في غزّة قد فجّرها اليهودُ عندما كانَ يوسُفُ رضيعاً.. لم يتجاوز الثانيةَ من عمره.. وها هـم اليوم يقفلونَ أنابيبها ويُهدّدون بهدمهـا.. فهم يعرفونَ أن ليس هناك وسيلةٌ أسهلُ لإذلالِ سكّان غزّة إلا قطْعِ الماء عنهم..

– المقصودُ يا أخي تعطـيشُ الشّجر.. المهمُّ أن تنشفَ حبّاتُ البرتقالِ عـلى أشجارها.. المهمُ أن يخربَ موسمُ الحصاد.. وها هوَ قد خربَ فعلاً..

في كلِّ سَنة كانت حربُ الحمضيّاتِ تشتدُّ.. في كلِّ عام كانت آمالُ حسَونة ويوسف وأصحاب البيّارات وسـائقو الشـاحنات والأولادُ والزوجاتُ تنهارُ.. وفي كلِّ عـام كان العـدوُّ الاسرائيليُّ يتفننُ بالطرق لإيذاء سكّان غزة.. السّماد.. الماءُ.. التصاريحُ.. الشراءُ.. البَيعُ..

ولكنَّ مشكلةَ حـسَونة الحقيقة كـانتْ في ذلكَ النّهار الذي تسلّمَ فيه تلكَ الرّسـالةَ اللعينة التي تحملُ خـاتَمَ دولة اسرائيل الكبـرى.. لقد صـادرتْ حكومةُ اسـرائيل معظمَ أرضه وأخـذتها كي تجعلها منطقةً عسكريةً!!!

○ ○ ○

أبو جهاد: خليل الوزير في غزّة

تسلّلَ أحمدٌ من بيتِ والده يوسف قبلَ الفجرِ، وانطلق إلى مهمتِه السريّة، وقفَ في باب المخيّم يُراقبُ الطريقَ.. ومنْ بعيد ومنْ بيت حسّونة قامَ ماجدٌ من فراشه متسلّلاً هو الآخر حاملاً صفارتَهُ، وانطلقَ إلى مدخلِ المدينة الشمالي..

ومن مخيّمات جباليا والشاطئ والنصيرات والشجاعية، ومن أحياء غزّة وبياراتها كانَ الشّبابُ ينطلقونَ كلٌّ إلى موقعه المحدَّد في الوقتِ المحدَّد يراقبونَ الطرقَ، ويسجّلونَ حركات جنود العدوِّ وسياراته ودبّاباتِه ومصفّحاته.. كانتْ دورياتُ المراقبة هذه تسلّمُ.. معلوماتها إلى القياداتِ السريّة!!

تسلّلَ أحمد من فراشه دونَ أن يراهُ أحد.. حملَ صفّارتَهُ وانطلقَ.. وعندما أتمَّ دوريّتَهُ، سجّلَ معلوماته وسلّمها للمسؤول!!

– أوّلُ دورية اسرائيلة دخلت الطريقَ الرئيسي في السّاعة الخامسة وخمسٌ وثلاثين دقيقة من الصّباحِ الباكر.. كانت تتألّفُ من ثلاث سيارات عسكريّة تحملُ الأرقامَ التاليةَ ٧١٩٤٥، ٣٢٥٦٧، ٩٥٧٤٢. السّيارةُ الاولى كانت تحملُ ستّةَ جنود عدا السّائق.. السّيارةُ الثانيةُ تحملُ عشرة جنود يضعونَ الخوذَ الحديديةَ على رؤوسهم.. السيّارةُ الثالثةُ فيها سبعةُ جنود يحملُ أحدُهم جهاز لاسلكي ويَضَعُ على رأسه وأذنيه سمّاعات خاصّةً.. دخلت الدوريّةُ الشوارعَ الفرعيّةَ المجاورة ثمَّ خرجت من الشّارع..

كلُّ ما في غزّة كان يغلي.. كلُّ من في غزّة كـان يعملُ.. كلُّ رجلٍ وامرأة أو طفل في غزّة كانَ لهُ دور.. وكلُّ فلسطينيٍّ في غزّة كان يعرف القائد خليل الوزير "أبو جهاد".. في الدّكاكين والبيوت وفي البيّارات ومع الفلاحين، مع سـائقي الشاحنات وصيّادي الأسماك. لم يكن مسـموحاً للقائد خليلِ الوزير أن يدخُلَ فلسطينَ أو يسيرَ على تُرابها أو يصـافح أبناءَها.. ولكنَّهُ كان معهم في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ لحظة. كان في غزّة وخارجها، يعيشُ بروحه وفكره وتخطيطه..

كانَ مع حسّونة في محنته في بيّارته.. وكانَ مع أحمدَ وهو يُراقبُ قوّات العدوِّ ويبلّغ رؤساءه عما يرى.. كانَ مع عمّة يوسف وهي تُراقبُ تحرُّكات اليهود المستوطنين في المستعمرات القريبة.. وكانَ مع ماجد ابن حسّونة وهو يساعدُ في بناء البيوت المهدومة ويعاونُ الفقراءَ والمحتاجين..

كانَ خليلُ الوزير مع قـصص أمّ يوسف لأبنائها وأبناء جيرانـهـا، ومعَ معلّمة مدرسـة الوكالة وهي تُعلّمُ الطُّلاب، وكان مع شيوخ الجوامع وشبابها..

كانوا ينادونه باسمه أو بألقابه.. خليل الوزير.. أبو جـهاد.. القائد الرمز.. أول الرصاص.. أول الحجارة.. عقل الانتفاضة.. ومهندسها التنظيمي..(١)

منذُ خمس سنينَ وقبل أن تندلعَ الانتفاضةُ في غزّة والضـفة العربيّة، كانَ أبو جهاد يفكّرُ بها.. كان يقـول: إذا كُنّا قد خرجنا من فلسطينَ لنعـملَ في لبنان أو تونسَ أو العراق فـعلينا أن نحاول العودةَ إلى أرضهَا والعملَ منْهـا ولها.. وهل يستطيعُ هو ورفاقهُ المبعدون أن يـعودوا إليها؟.. لا.. إذن لتكن الثـورةُ من داخل فلسطينَ، منْ تحت أرجُلِ الجنود اليهـود. منْ حجـارة أرض فلسطين وبأيدي أبنائها..

هكذا ابتدأ القائدُ الكبـيرُ العملَ من بعيد.. بعيد جـداً عن فلسطين.. ابتدأ من تونُسَ ومن العراق ومن اليمن ومن القاهرة.. وحتـى من روما وفرنسا ويوغسلافـيا.. من كلِّ مواقعه الموجودة في أنحاء الأرض حيثُ تشتّتَ الفلسطينيونَ وحيث أُبعدوا عن وطنهم..

هلْ وصلت رسائلُ "أبو جـهاد" إلى يوسف أبو دقّة؟ هل قرأها حسّونة في سجنه؟ هلْ أعاد قراءتهـا الشيوخ في جـوامع غزّة؟.. هل كانت أمّ إبراهيم عـمّة يوسف وجاراتها ينقلنَ تعليـمات "أبو جهـاد" القائد إلى أبناء المخيّم؟.. وهل كـانَ "أبو جهاد" يتابـعُ تقاريرَ أحمد ومـاجد وكلّ شبابٍ وشابّات غزّة؟..

منْ أينَ أحضرَ الشّبابُ أشتـالَ البرتقال الحديثة لغرسـها في الـبيّارات التي قُلعتْ أشجارها أو جفّت؟.. كيفَ وقفَ سائقو الشاحنات يدافـعون عن رزقهم ورزقِ عيالهم؟.. كيفَ وصلت رسـائلُ أبي جهاد إلى كبيـر الصيادين والصياديين ليصمدوا ويتكاتفوا أمـامَ جنود العدوِّ؟.. كيف انتشر الرّأيُ الواحدُ والموقفُ الواحدُ ضـدَّ هذا العـدوِّ الواحد من غـزّة إلى نابلسَ إلى رام الله والقـدس، وحتى الناصرة وحيفا ويافا؟.. لقد بدأ تنظيمُ "الانتفاضة" يشملُ كلَّ مُدُنِ وقرى فلسطين..

(١) سيصدر بإذن الله ضمن هذه السلسلة من الكتب، كتاب خاص عن حياة القائد خليل الوزير.

قال يوسف لشيخ الجامعِ:

– مـا زلتُ غيرَ مُقتنعٍ بما يقـولـه.. كـيف لأفرادٍ عُزّلٍ أن يـقفوا أمـامَ جنودِ العـدوِّ ودبّاباته وأسلحته؟..

– الصّمودُ أولاً يا يوسـف وعدمُ الهـروبِ من وجـهِ الأعداء هو أوّلُ المواقفِ النـضاليـة التي يعيشُها شعبُنا ضدَّ عدوِّهِ.. الصمود أولاً..

– وها نحنُ صامدون؟ فماذا بعد؟..

– ثانياً تحمُّل أعباء المواجَهة يداً بيد أمامَ هذا المحتلِّ..

– وكيف يكونُ ذلك؟..

– أن نقفَ جميعاً نساعدُ بعضنَا الآخـر.. ألم يقف الجميعُ مع صديقكَ حسّونة يومَ اعتقل؟.. ألا ترى الأشتـالَ الجديدةَ تُبشّرُ بـالخيرِ بإذنِ اللهِ؟.. كَـيفَ استمرَّ عيالُك يأكـلونَ ويشربونَ رغم توقُّفكَ عن العـملِ طويـلاً.. ألا ترى كَـيفَ يبني الشّبـابُ البـيـوتَ المعَرضـةَ للسقُـوط؟! هذا هوَ الصُمود..

لن ينالوا منّا إذا كُنّا يداً واحدةً نقفُ ضدّهم وضدَّ مخططاتهم القذرةَ.. لقد هبَّ الشّعبُ كلُّهُ ضدَّ محاولاتهم قتلَ رؤساء البلديات العرب (١) وأعلنوا اضرابهم وتضـامنهم في ذكرى يوم الأرض (٢).. وتعـرّضـوا للقتلِ والسّجنِ والاعـتقـالِ ولكنّهم صـامـدون.. صـابرون.. فكيف بدأت هذه الإنتفاضة ؟..

٥ ٥ ٥

(١) قامت مظارة كبرى عام ١٩٨٠ بعد محاولة إغتيال رؤساء البلديات العرب (بسام الشكعة، إبراهيم الطويل، وكريم خلف)

(٢) ذكرى يوم الأرض تتجددفي كل عام بتاريخ ٣/٣١ كذكرى لليوم الذي أعلن ١٩٧٦/٣/٣١..إقرا قصة يوم الأرض في الكتاب رقم ١١ من هذه السلسلة.!

الشرارةُ تبدأُ من غزّةَ

في ذلكَ النّهار التاريخيّ بدأ قدرُ الحليب يغلي ثمّ يفور.. كانَ القدرُ على النّار منذُ مدّة، ولكنّهُ في تلك اللحظة بدأ يغلي ويفور.. كانَ سكّانُ غزّةَ ومخيماتها يكتوون بنار الإحتلال منذُ مدة. ولكنّهم وفي ذلكَ النّهار التّاريخيّ بدأوا الغليان وبدأت الانتفاضة.. كانَ لابدَّ للقشّة أن توضعَ فوقَ ظهر الجَمَل حتى تقصمهُ، وكان لابدَّ لحادث العمّال الأربعة أن يقعَ في غزّة حتى تخرجَ الجماهيرُ من بيوتها ومحلاتها ومدارسها وجوامعها ومخيّماتها لتبدأ الانتفاضة..

في ذلكَ النّهار ٨/١٢/١٩٨٧ تناقلَ النّاسُ من بيت لبيت ومن رجل لرجل ومن امرأة لطفل، خبرَ استشهاد أربعة عمّال من غزّة على حاجز عسكريٍّ عندَ مدخل مخيم البُريج.. أربعة شبّان كانوا يستقلّونَ سيارةَ أحدهم، أوقفهم حاجزٌ عسكريٌّ إسرائيليّ على باب مخيّم البريج أحدْ مخيّمات غزّة، ثم أطلقَ عليهم الرّصاصَ فاستشهدوا في الحال.. تدفّقت الدماءُ الحارّةُ من أجسادهم ولم يستطيعوا أن يردّوا على الجنود..

هلْ كانوا أولَ من يقتلُهُم اليهودُ من أبناء قطاع غزّة؟.. هل كانوا أوّلَ الشهداء في تاريخ النّضال الفلسطينيّ؟.. ألم يقتل اليهودُ قبلَهُم عشرات الشّباب والفدائيين منْ قبل؟.. لماذا ارتبط حادثُ قتلهم بحالة غليان قدر الحليب وفورانه؟..

ولكنّها الشرارةُ الأكبرُ التي فجرت النّارَ.. إنّها الحادثةُ التي فجرتِ الأحداثَ ... إنّها اللحظةُ التي خرجَ فيها كلُّ السُّكان ليقولوا معاً وبصوت واحد وقبضة واحدة، لا.. لا يا اسرائيل.. لا يا

جنودَ المحتلين.. لا يا أعداء اللّه والإنسانية..

اندفع سكّانُ غزّة برجالها ونسائها وشيوخها وأطفالها إلى الشوارع، اندفع الشيخ محمد والشيخ رضوان وابراهيم وأحمد وأم ابراهيم وأم يوسف وأبناؤهم.. اندفعَ شيوخ الجوامع والمصلّون وأصحابُ الدكاكين والبيارات والصيادون والطلابُ والعمالُ..

دوى هدير لا إله إلا الله في أرض غزّة وفضائها.. وانطلق الماردُ وتدافع الطوفانُ البشري كحمم البركان لا يعرفُ التوقّف.. وحاولَ الجنودُ الاسرائيليون منعهم من التقدّم، وحاولوا بمكبّرات الصوت الطلب إليهم العودة إلى بيوتهم والتزام الهدوء.. حاولوا إخافتهم وإطلاق الرّصاص عليهم.. ولكنّ الجماهير المندفعة لم تكنْ تسمعُ الأبواق ولا الرصاصَ.

لم يكنْ أحدٌ يحملُ سلاحاً بيده.. ولكنّ سلاح الإيمان كان يملأ الصّدور، فالتقط الناسُ الحجارة من الأرض ورموها على الحواجز العسكريّة وعلى سيّارات الجيش الاسرائيلي. فانسحبت في الحال..

في ذلك النّهار التاريخي اندلعت الانتفاضةُ وانسحب جيشُ الاحتلال الاسرائيليّ من غزة.. فأحسّ سكّانُ غزّة بالحرّية والنصر، ورفعوا الأعلام الفلسطينية وهتفوا للدولة الفلسطينية ولأبي جهاد ولكلّ الأبطال والمناضلين..

o o o

الانتفاضةُ غيّرت حياةَ النّاس

كلُّ حياة النّاس تغيـرت بعدَ اندلاع الانتفاضة.. ولكنَّ حياةَ يوسف تغـيّرت باتجاه آخر.. كان يوسفُ منذُ صغرِه ضعـيفَ البنية "خويّف" لا يحبُّ المجابهة.. كانَ قـدْ فقدَ والدَه الفدائي وهو في العاشرة منْ عـمره، فلمّا كبرَ وتزوَّجَ ورزقَ بأولاده الثـمانية، فقد أرادَ أنْ يؤمّنَ حـياةَ أطفاله فقط.. وعندما بدأ ابنهُ الكبـيرُ أحمد يخرُجُ مع أبناءِ غزّةَ لمواجهـة جيشِ العدوّ، كانَ يوسـف يجلسُ معهُ السّاعات يسألهُ عن "أعمالهم" وعن جدواها..

قالَ أحمد لأبيه..

– لقد ابتدعنا أسلوباً جديداً في التّعاملِ مع سيّاراتِ العدوّ يا أبي أتدري ما هو؟

– ما هو؟

– مساميـرُ نغرسُها في حبّات البطاطا.. وننشرُها على الأرض في مداخلِ المخـيم فإذا جاءت السّيارات العسكريةُ "بنشرت" في الحال..

– والحجارة؟..

– طبعاً مـا زالت الحجارةُ مسـتعملةً.. فمـا إنْ تدخُلُ سيارةٌ عسكريةٌ الطرقـات حتى نمطرها بوابل من الحـجارة.. أتدري يا أبي؟ لقـد ركّبت السُّلطاتُ العـسكريةُ الإسرائيليـةُ على شبـابيك السيّارات أقفـاصاً حديديةً خـوفاً من حجـارتنا.. كنتَ تقولُ لي مـا فائدةُ حجـارتكم.. لقد كلّفتْ

حجارتنا دولة اسرائيل ملايين الدولارات لوضع أشباك الحديد هذه.. فما رأيك اليوم بالإطارات؟..

وتنهد الأب وهو يقول..

– وهل بالحجارة ومسامير البطاطا يتحرّرُ الوطنُ يا أحمد؟..

واندفع أحمد وهو يقول:

– أتعرفُ يا أبي؟ جارتُنا أم محمود أمس سكبتْ بعضَ الزيت والسمنة على الطريق قبل وصول السيّارات العسكرية الاسرائيلية.. وما إنْ مشت السيّاراتُ على الطريق حتى انقلبتْ على جانبه.. وقد شاهد جميعُ السكانِ الجنودَ الجرحى وهم يُنقلونَ بالطّائرات المروحيّة إلى المستشفى إثر الحادث.. إنّ شيخَ الجامع يا أبي يقول لنا إنّ سرّ الإنتفاضة وعظمتها يكمنُ في أنها ثورةُ شعبٍ بأكمله، وإنّ الشعبَ لابدّ وأنْ ينتصر وإن طال الزمن..

○ ○ ○

يوسف في محنة

" سمعت أن ابن أخي يوسف لا يعمل ولا يخرج من بيته... فصعقت... كيف يكون ذلك؟... والله لو كان أبوه ما يزال عائشاً لما رضي له ذلك... أخي كان رجلاً عظيماً فدائي يا بنتي ألا تعرفين ما معنى الفدائي؟..

((ذهبتُ حالا إلى بيته.. ومعي ابني إبراهيم... قالت لي زوجته:

– منذُ اعتقلَ حسّونة ودخلَ السجنَ، لم يعدْ ليوسف صديق.. ومُنْذُ قُطعَ شجر البيارة وَصُودرَت الأرض وأصبحتْ مستعمرةً لبيوتِ اليهود، لمْ يَعدْ يوسف يخرجُ للعمل. لقد آلى على نفسه ألا يقتربَ من شجرةٍ برتقال أو جريبفروت، ولا يعملُ مع مزارعٍ... وعندما اشتعلت الانتفَاضة ازداد حال يوسف سوءاً .. وها هو كما ترين!!

" وبكيت كثيراً .. فيوسف أعزّ عليَّ من أولادي.. لقد حملته في صغره يوم كان أحلى ما في المخيم.. كان مخيم بؤس وتشرّد، فكانت ابتسامته تبعثُ الأملَ في نفوسنا.. وازداد حبه في قلبي عندما استشهدَ أبوه، وتحمّل هو مسؤولية العائلة فكيف أتركه في محنته اليوم؟..

" دخلت عليه بالصوت بالعالي.. قلت له: لو شافك والدك الله يرحمه، لسلخ جلدك عن عظمك. هل هذا ما ربّاه فيك يا يوسف؟ ..تقعد كالأرامل وتحبس نفسك؟.. أ هكذا نصارع العدو ؟ أهكذا نحاربه؟.. كان أبوك يحمل بارودته وسلاحه وروحه على كفّه ويدخل إلى قلب العدو لمحاربته. وإذا كان ممنوع علينا اليوم حمل السلاح وكُنتَ لا تشارك في الانتفاضة فهل الحل أن تجلس هنا بعيداً في هذا الزاوية؟..

" قلت إن العمل واجب وأنَّ صمودنا على أرضنا لا يكون إلا بالعمل.. وإذا أقفل اليهود الباب فتحنا شباكاً.. وإذا ضيقّوا علينا في ناحية حاولنا في الف ناحية.. المهم أن لا نيأس ونقعد..

قلت: وهل اقتَنَع؟..

قالت: نعم يا بنتي.. قلبه طيب وابن حلال.. حلفت عليه إلاَّ ينزل بكره مع ابني ابراهيم على سوق السمك ويشتغل معاه هناك ووافق".

ooo

يوسف في سوق السمك

قبلَ الفجر كان يوسُف مع ابن عمتـه إبراهيم في طريقهمـا إلى سوقِ السَمَك قـرب شاطىء البـحـر. كـان الـرَصيـفُ يعجُ بالنَّاس.. متـعـهـدو السَمك يقـفـون علَى الرَصيـف بانتظار البحَارة...والعمَالُ يروحون ويجيئون بانتظار الاشـارة للتحميل.. والأنظارُ كُلُّها تتَّجهُ إلى البحر الممتد بزرقته الرائعة..

كان منظراً خـلأبا... أحسَ معهُ يـوسف بالسعادة تتسلسَلُ إلى قلبه قليلاً... ومن بعـيد بدأت المراكبُ تتهادى على وجه الماء متقربةً من الشاطىء.. فامتلأ قلبُه بالفرحِ والسعادة، وسمع صوت البحَارة يهلّلون.. هيلا يا راجع... هيـلا هيلا... هيلا... مركبك راجع هيلا... هيـلا ... هيلا. فابتدأ يُغني معهم بسعادة غامرة..

كانت القـواربُ الصغيرةُ تكبُرُ شيـئاً فـشيـئاً وهي تندفعُ تجاهَ الشـاطىء.. وظهرت رؤوسُ الرِّجال ... وعجَ الرَصيـفُ بالحَركة والحـماسة ووَقَف الذي كـان جالساً وتَرك من كـان يشربُ الشاي كأسهُ لقدْ وصل الخير...

ومن بعيد ظهر مركبُ "سـعيد الهس" كبيرُ الصيَّادين.. مركبٌ كـبيرٌ ملونٌ.. وتحرَك إبراهيم وتحرَك بعـدهُ يوسف واقـتربا منَ الشاطئ.. وبعـد دقائق صفَ المركبُ في مكـانه المُخصص له وصعَد "الهس" إلى مُقدمـتـه ونطَ إلى الارض.. كلُّ من يعملُ بالبحر وأمـواجه والسَمك وغرائزه

يجبُ أنْ يكونَ قويَّ البُنية مفتولَ العَضلات أسمَرَ البشرة يمتلىءُ بالحيوية والنَّشاطَ..

منذُ ساعات وقبلَ أنْ يصلَ إبراهيم ويوسف البحرَ، وفي جُنْح الظَّلام ،كانَ الصيادون قد ركبوا قواربَهُم وانطلقوا إلى البحر الأبيض المتوسط يرمونَ شباكَهم في الماء.

وقبلَ أنْ يصحو سكانَ غزةَ، تكونُ الشِّباكُ قَد امتلأتْ بالسمك.. وقبلَ شروق الشمس يبدأُ الصَّيادون بشدِّ شباكهم ورفعها إلى ظُهُور قواربهم.. عمليةٌ صعبةٌ ولكنها ممتعةٌ. إنَّها لقمةُ العيش فيها التعَبُ وفيها الأنتاجُ والعطاءُ.. ومَعَ شروق الشمس تَعودُ القواربُ إلى المِيناء ويبدأُ الصَّيادون بإنزال السَّمك وبيعه..

بعدَ ساعةَ كانَ إبراهيم ويوسَف يحملانِ صيدَ العمْ "سعيد الهس" كبيرِ الصَّيادين ويضعونَهُ على طبلياتِ السَّمك ، كلُّ صنف قربَ الآخر..

قالَ إبراهيم:

– ضَعْ كلَّ صنف على حدةِ.. سَمَكُ المشط هنا.. والسَّمكُ البلطيُّ هناك... وسمكُ البوري هنا... والسلافيحُ هناك...

وقبلَ أنْ ينتهي الرِّجالُ من ترتيب السَّمك كانوا ينادُون عليه:

– السمك... السمك... مين يشتري السمَك... يا الله على السمك... السمك البلطي يا ستات... السمك السلافيح يا صبايا... سمك المشط... السمك ... سمك السلطان إبراهيم.

كانَ كلُّ بائع سمك يُنادي على أصناف سمكه للزبائن من الرِّجال والسيِّدات، بينما حَمَلَ بعضُ الرِّجال طبليات منَ السَّمك للسُّوق المركزيَّ في المَدينة ليُباع هناك...

وأَحَسَّ يوسفَ بالسَّعادة مرَّةً أُخرى تتسرَّبُ إلى نفسه حتى غمرتْ قلبَهُ وصدْرَهُ ورئتيه وفكره.. إنَّهُ البحرُ... إنَّهُ الخيرَ.. كلُّ منْ يعملُ فيه يشعُرُ بالسَّعادة. فرزقُهُ وفيرٌ وخيرُهُ عميمٌ.. هو الطَّهورَ ماؤُهُ الحلُّ ميتتُهُ.. طعامُ الأغنياء والفقراء..

ولكنَّ سعادةَ يوسف لمْ تَدُمْ طويلاً.. فلمْ يمضِ يومان أو ثلاثة، حتى فوجىءَ بالصيّادينَ يتجمهرونَ حولَ بعضِ الجُنود الإسرائيليين الذين وصلوا الشاطئ مبكِّراً..

وقد خافَ يوسف في بادىء الأمر، واعتقد أنَّ الجنودَ تسألُ عنه، ولكنَّهُ سرعانَ ما فهم الأمر...

لقد أوقفَ الإسرائيليون عدداً منَ القوارب ومنعوا أصحابَها من الاقتراب منها لمدَّة أسبوع لأن الشاطئ لم يكنْ (ممشوطاً) كما تركوه في الأمس..

وتساءَلَ يوسف في صوت منخفض:

- الشاطئ ممشوط؟ ومن الذي مشطه...

وشدَّ إبراهيمُ يوسفَ من يده ليسكُتَ... وبعدَ انصراف الجنود قالَ إبراهيم...

- هم هكذا يمشطون رمال الشاطىء كلَّ ليلة... ليعرفُوا إذا كانَ قد اقتربَ منَ الشاطىء أحدٌ في الليل... فإذا ما مرّت قطةٌ أو كلبٌ على الشاطئ اعتبروا ذلك انتهاكاً لسلطتهم عليه.. فأوقفوا بعضَ المراكب عن العمل لبضعة أيام عقاباً لنا.!!..

لم يكنْ يوسف يدري أنَّ مشاكلَ قطاع صيد السمك كبيرةٌ مثل مشاكل بيارات الحمضيات.

ولم يكدْ نهارُ اليوم التالي يطلُعُ حتى كانت طائراتٌ مروحيّةٌ اسرائيليّةٌ تحلّقُ فوق رصيف الميناء. فاضطرب الجميعُ وسأل يوسف:

- ما الامرُ الآن؟

- لا ندري بعدُ... ولكنَّ الوضعَ غيرُ مريح... فما إنْ تحضرُ الطائراتُ حتى يكون في الامر ضربةٌ جديدةٌ لأحد الصيّادين..

- ماذا تعني؟

- ما أعني أنَّ الطائرات الإسرائيلية تطلُعُ لتراقبَ الصيّادين، وهيَ في كلِّ مرة تدّعي أنّها رأت أحداً من المراكب يُبحرُ أكثرَ من الحدِّ المسموح به.. فتوقعُ به العقوبات.

وتنهَدَ إبراهيم ثم قال:

– هيه يا يوسف يا ابنَ خالي.. هذا موضوعٌ كبيرٌ وأنت لن تفهمَهُ بسرعةٍ تلك مشاكلُ لا أولَ لها ولا آخر...

– لقد ظننتُ أنَّ اليهودَ لا يتدخلُون في البحرِ ورزقه.. فذلكَ رزقٌ منَ اللّه تعالى لا دخل فيه لماتورات الماء ولا السَّماد ولا أسواق البيعِ في الضفَّةِ أو الأردنِّ أو أوروبا فما هي مشاكلُ الصَّيادينَ هذه... وما هو "الحدُّ المسموحُ به" وما هي العقوبات؟

ونَزَلَت الطائرةُ على الشاطيء فأثارت زوبعةً منَ الغُبار والهواء.. ونزَلَ منها ستَّةُ جنود عسكريينَ يحملونَ البنادقَ والقنابلَ... ووقفَ الجنودُ ينتظرونَ المراكبَ...

وقفوا في المكانِ الذي يصطفُّ به مركبُ "الهس" بالضبط فأحسَّ إبراهيم بالخوف والقلقِ..

وَوَصلَ المركبُ الكبير.. وارتفع صوتُ الجنديِّ..

– تعالَ يا "هس" واربط مركبكَ جيداً، فقد لا تحتاجُهُ لمدة عام أو أكثر ثم اتبعنا إلى الحاكم العسكريِّ!!

والتمَّ أهلُ الرَّصيف كلُّهم حولَ "كبيرِ الصيادين" يساعدونَهُ في جَرِّ قاربِهِ إلى الشاطيء وربطه... وارتفع صوتُ "الهس" يسألُ:

– وماذا فعلتُ حتى أذهبَ إلى الحاكم العسكريِّ؟ ولماذا أربطُ القاربَ؟..

–لأنَّكَ اجتزتَ "الحدَّ المسموح به" للصيد... لقد راقبتُك من الطائرة.. وجدتُكَ تبتعدُ عن الشاطيء أكثرَ مما هو مسموحٌ لك بالقانون... وأنتَ تعرفُ أن دولةَ اسرائيل تلتزمُ بالقوانين.. وتحبُّ أن يلتزمَ بها كلُّ سكّانها..

– وهل استطعتَ من الطائرة تحديدَ بُعدي عن الشاطيء؟

– نعم وبكلِّ دقّة...! لقد تجاوزتَ مسافةَ العشر كيلو مترات المسموحة لك بخمسينَ متراً على وجه التحديد... فطائرتي مجهزةٌ بأحدثِ الآلات التكنولوجية وتقيسُ بُعدَ القاربِ عن الشاطيء بدقة..

– ولكنَّ قاربي غيرُ مجهّزٍ بهذه الأجهزة، ومن المُستحيل أن يقيسَ خمسينَ متراً بالنِّسبة لعشرة كيلو مترات عن الشاطئ.

وهمهمَ الصيادونَ الواقفون... يؤيِّدونَ كبيرَ صياديهم ويدافعونَ عنه، ولكنَّ الجندي نهرهُم قائلاً:...

– بلاش ازعاج أكثر من اللازم.. كل واحد يذهب إلى حاله ويوفر كلامه..

ثم أشارَ إلى كبير الصيادين وقال:

- وأنت ... تذهبُ إلى الحاكم العسكري..

في تلك الليلة لم ينمْ يوسف... لقد ظلَّ يفكّرُ بالرّجل ومركبه الموقوف عن العمل.. فتذكّر البيارة التي توقّفت عن العـمل هي الأخرى.. قالوا له عـن عشرات المشـاكل في قطاعِ الصّيادين وبائعي الأسماك وحتـى المستهلكين. حدّثوه عن تصاريح العمل الـتي " ينشف ريقُهم " قبل أنْ يحصلوا عليها... وعن الصّيد الذي يمنعونهم من بيعه.. فتذكّر نشفان البيارة والبرتقال المتعفن والسائقين المعطّلين عن العمل.

وعندما جاء ابنُ عمتّه في صباح اليوم التالي لأخذه رفض الذهاب معه !!

لم يكد النّهار ينتصفُ حـتى عادَ كلُّ الناس إلى بيوتهم. فقد أعلنَ منعُ التجـوُّل لأنَّ مقر الحاكم العسكريّ الإسرائيلي في غـزّة تعرّض لهجوم بالحجـارة والزجاجات الفارغة.. منْ ضـربَ مقر الحاكم العسكري يا ترى؟

ο ο ο

من هو " عامي بوبر " ؟!

هناك في مستعمرة "ريشون ليتسيون" نشأ "عامي بوبر" وفيها تعرَّفَ إلى صديقته "هاغيت مزراحي".. ومنذُ صغرهما وهما يذهبان إلى المدرسة معاً ويلعبانِ معاً ويتدرَّبان على الأعمالِ الشاقَّةِ والعسكريَّةِ معاً...

في مستعمرة "ريشونَ ليتسيون" كانَ على الطلأب الصغار أن يتذكَّروا دوماً أنَّ هذه الأرض كانَ يسكُنُها أناسٌ آخرون هم العرب.. وإنَّ اسمها كانَ "عيون قارة"

وفي هذه المستعمرة كانَ على الأساتذة والأهلِ أنْ يُربُّوا ابناءَهم على توقُّعِ الحرب مع هؤلاء العربِ في كلِّ لحظة وكلِّ مكان... فأهلُ "عامي بوبر" قد حضروا إلى هذه الأرضِ من بلد بعيد أسمه "رومانيا" وصديقته "هاغيت" أيضاً حضرتْ مع أهلِهَا من بلد بعيد أيضاً، اسمه بولندا...

وهؤلاء وغيرهم قاموا بطرد أصحابِ قرية "عيون قارة" ونسفِ بيوتهم ليُنشئوا مكانَها مستعمرةً خاصةً بهم اسموها "ريشون ليتسيون" ولذلك فإنهم يتوقعونَ الحربَ دائماً.

واليهودُ لا يخافونَ من العرب فقط لأنهم أخذوا أرضهم، بل إنَّهم يحبُّون زرعَ الخوف في نفوسِ ابنائهم دوماً من الأعداء أينما كانوا... عندما كانوا في رومانيا أو فرنسا أو روسيا كانوا أيضا يشعرون بالعداء تجاهَ أهلِ هذه البلدانِ... كانوا يعيشونَ في أحياءَ خاصَّة بهم يسمونها "جيتو" ولا يختلطونَ مع باقي النَّاس... ورجالُ دينهم "الحاخاميون" يغذُّونَ عندهم هذا الشعورَ، ويقولونَ لهم إنَّهم شعبُ اللهِ المختار، وإنَّهم أفضلُ من كلِّ البَشَرِ، وإنَّ "التوراة" تبيح لهم قتلَ النَّاسِ من غيرِ اليهودِ واستبعادَهم.

في مدرستها في "ريشون ليتسيون" درسَ "عامي بوبر" وصديقته "هاغيت مزراحي" تاريخَ اليهود وتوراتهم المحرَّفة. وحفظوا رأيَ رجالِ الدِّين الذي يقول:

– في ساعةِ الحربِ مسموحٌ لي وربما يجبُ علي أن أقتلَ كلَّ عربيٍّ وعربيةٍ يصادفانني في الطريق...

وقد تدرَّبَ "عامي بوبر" وصديقتُهُ على الأشغال الشَّاقة، وعلى حَملِ السِّلاح وهما بعد صغيران مشيا في الصَّحراء بلا ماء أو طعام.. وركَضَا تحتَ المطرِ وبينَ الثُّلوجِ دونَ ملابس

واقية، نزلا في مياه البحر الباردة، وناما بين القبور، كان عليهما أن ينشأ نشأةً عسكريةً قاسيةً حتى يقابلا العربَ ويقضيا عليهم.

لكن "عامي" كانَ يكرَهُ هذه الأعمالَ الشاقةَ... كان يكرهُ الجوعَ والعطشَ والتعبَ، ويحبُ أنْ يبقى مع صديقته هاغيت في أمانٍ وسلامٍ.. لذلك كان "عامي بوبر" يكرهُ العربَ ويكرهُ أنْ يحاربَهم..

ولما أصبحَ عمرُهُ عشرين عاماً، استدعاهُ الجيشُ الإسرائيليُّ ليخدمَ فيه بعيداً عن صديقته.. فكانت المشكلة !!

تدريباتٌ شاقةٌ مستمرةٌ... ركضٌ... زحفٌ... قفزٌ فوقَ النارِ.. تسلُّق الجبالِ... تنظيفُ الأسلحة العسكريَّة... إصابةُ الهدفِ بدقَّة... تدريباتٌ شاقةٌ مستمرةٌ... منذُ وعى الدُنيا وهو يتدرّبُ على القتل والقتال... منذُ فتحَ عينيه وسمعَ بأذنيه وهو يسمعُ عن الحروبِ والإبادة... وها هو يضطر لترك محبوبته فلماذا يبقى في الجيش؟..

قال عامي بوبر لصديقته هاغيت:

– تركتُ الجيش يا هاغيت... تركتُهُ وجئتُ لنعيشَ معاً..

– ماذا تقولُ يا عامي؟ تركتَ الجيشَ؟ هل جننت؟

– إلى متى سنظلُّ نحملُ السّلاح يا هاغيت؟ متى نرتاحُ أنا وأنت معاً في بيت آمن، لا نخافُ فيه من قادة الجيش ومنْ أوامرهم التي لا تنتهي؟ ... لا أُريدُ العودَةَ إلى الجيش ولتَدريباته الشاقَّة.

– والعرب؟

– مالي ومال العرب؟ سئمتُ من حمل السّلاحِ ووضعِ اليَد على الزّناد طولَ الوقت.. سئمتُ من ملاحقَتهم ومتابعَتهم والهرب من حجارتهم وزجاجاتهم الحارقة... سئمتُ من مطاردتهم ومن انتفاضتِهم.. أُريدُ أَنْ أبقى بقربك لا أُريدُك أَنْ تذهبي أنت أيضاً إلى الجيش... لا أحبُّ أن تتعرضي لحجر يقلَعُ عينَك أو سكينٍ تدخُلُ خاصرَتَك..

– والعرب يا عامي؟...

– العرب ... العرب... العرب... فليذهبوا إلى الجحيم... لا أهتمُّ بهم ولا بوجودهم ولا رحيلهم... لا أهتمُّ بعيشهم أو موتهم... المهم أنت يا هاغيت.

وفَجأةً تركت هاغيت عامي... تركتْهُ يتكلّمُ هذا "الهراء" وانطلقت مبتعدةً عنه، فهي لا تحبُّ أنْ يكونَ اليهوديُّ مثل هذا...

وصاح عامي بها...

– اين تذهبين يا هاغيت؟

– إلى الجيش... إلى وحدتي في جيشِ الدّفاعِ الإسرائيلي...

– وتتركينني؟

– نعم... أتركك... فمن يحملُ مثلَ هذه العقلية، ومثلَ هذه الفلسفة لا يستأهلُ حبّي.. نعم أتركُكَ فمن يترُكُ الجيشَ ويرمي السّلاحَ لا يستأهلُ حبَّ بنات صهيون... من يرفَعُ يدَهُ عن الزّناد ولا يقاتلِ العربَ لن يراني بعدَ اليوم...

وانطلقَت هاغيت تاركةً عامي بوبر غارقاً في أحزانه... صديقتُهُ تريدُهُ بطلاً وهو يريد أن يعيشَ بهدوء... لا يريدُ أن يجابهَ العربَ حتى لو كانوا عُزْلاً فكيفَ السَّبيلُ إلى البطولة يا ترى؟..

واعتكفَ عامي بوبر في منزله وبعدَ تفكيرٍ طويل، وجدَ فرصتَهُ الرائعةَ هناك... في ريشون ليتسيون، في سوق العبيد...

ooo

يوسف في سوق العبيد

لم يترك يوسف بابا من أبواب الرزق في غزة إلا وطرقه.. حاول العمل في كثير من الامور فلم يستطعْ... الحياةُ في غزّة صعبةٌ جداً، والعملُ فيها أصعبُ بكثير، وأولادُهُ ثمانيةٌ، وكلُّهم بحاجة إلى الأكل واللّبس والدّفاتر والأقلام والكُتُب...

سألَهُ جارُهُ يوما..

– هل تعرف "القصارة" يا يوسف؟

– لم أعمل بالبناء أبداً في حياتي..

– إذن أعلِّمُكَ... إنّ العملَ في "اسرائيل" مزدهرٌ... وهم بحاجة دائمة للعمّال العرب ليعملوا في القصارة والتبليط والطّراشة وحمل الرّمل والأسمنت وغيره... تعالَ معي إلى سوق العمّال وهناك يأتي متعهدٌ يهوديٌ ويأخذُكَ معي إلى ورشة بناء في تل أبيب!!

فكرَ يوسف كثيراً، فأكوامُ الأفواه تنتظرُهُ.. أمُّه وزوجتُهُ وأولادُهُ.. وأبوابُ العمَل في غزّةَ مقفلةٌ... والجيشُ الإسرائيليُّ لا يرحم: منعُ تجوُّل... وضرائبُ، وهدمُ بيوت، واعتقالات... كثيرٌ من رفاقه وأقاربه دخلوا السجون.. حسّونة وإبراهيم والشيخ رضوان، وعشرات بل مئات... وهو لا يُحبُّ العَمَلَ في "اسرائيل" لبناء بيوت للمهاجرين الجدد.. ولكن ماذا يفعلُ أمامَ ضرورات الحياة التي لا تتوقّفُ لحظةً من نهار أو ليل؟

استشارَ يوسُفُ أمَّهُ، وإمامَ الجامع، وكثيراً من معارفه فوافقوه على الفكرة:

"الضرورة لها أحكام... والحياة بدها عمل... والعَمل للحصول على رزقك ورزق الأولاد جهاد".

وانطلقَ يوسف مع جاره إلى المكانِ الذي يتجمَّعُ فيه العُمَّالُ العرب ليختارَ منهم المتعهدون اليهودُ طلبَهم... وكانَ هذا السُّوق في مستعمرة "ريشون ليتسيون"...

قالَ لَهُ جارُهُ: في هذا المكان نتجمع دوما... يسمونه سوق العبيد... نبيعُ طاقاتنا ومهاراتنا وتعبَنا وجهدَنا لمن يدفع...

ومرّت الأيامُ وتعلَّمَ يوسف القصارةَ وأتقنها... وأحبَّهُ المتعهدُ اليهوديُّ لإخلاصه وهدوئه، فكانَ يختارُهُ يومياً للعمل في تل أبيب..

ولكن عامي بوبر إختارَ سوقَ العبيد هذا لينفّذَ عمليتَهُ البطوليّةَ فيه، وبكلّ سُهولة... ألا تريدُهُ هاغيت بطلاً؟؟ فعلى مَنْ سيكونُ بطلاً ودونَ ثمن؟..

مَرَّ وقتٌ طويلٌ و "عامي بوبر" يراقبُ سوقَ العبيد في مستعمرة "ريشون ليتسيون"... معظمُ العُمّال في السُّوقِ من عرَبِ غزّةَ.. وعمليتُهُ لن تعرِّضَهُ لحجارةِ أحدٍ منَ العرَب ولا منْ نظراتهم الغاضبة...

لبسَ "عامي" ملابس أخيهِ الذي كانَ في إجازةٍ من الجيشِ وحَمَلَ بندقيتَهُ أيضاً ووقفَ في سوقِ العبيد..

كانَ يوسُف وعشراتٌ منَ العمّالِ العَرَبِ ينتظرونَ المتعهّدَ ليأخذَهم كالمعتاد.. واقترب عامي منهم وكان الأمرُ في بدايته عادياً..

ففي كلِّ يومٍ يأتي الجنودُ اليهودُ لأخذ هويات العمّال للتأكُّد منها..

اقتربَ عامي بوبر وطلبَ منَ العُمّالِ الاصطفافَ بالدَّوْر ثم سألَهم..

- هل تعرفونَ ماذا أريدُ منكُم؟

ولم يجبْ أحدٌ وإنْ كانوا على الأرجَح قد حاولوا إخراجَ هوياتهم من جيوبِهم...

ولكنه أضاف:

- أريدُ أن اقتلَكُم جميعاً..

وفعلاً ضغط "عامي بوبر" على زناد البندقيَّة، وابتدأ الشَباب يتساقطون على الأرض.. وجنَّ جنونُهُ وهو يرى منظرَ الدِّماء والقتلى... لقد انتصرَ على "العرب" بسهولة فأكملَ العمل... استبدلَ مخزنَ البندقيَّة بمشط جديد واستمرَّ بإطلاق النار... كانَ منظرُ القتلى والجرحى يملأُ قلبَهُ فرَحاً.. لا أحدٌ منهم يستطيعُ إيقافَهُ عن العمل...

وعادَ عامي بوبر مسرعاً إلى منزل صديقته هاغيت ونادى عليها:

- هاغيت... هاغيت... تعالي... لقد أصبحتُ بطلاً... لقد قتلتُ الكثيرَ من العرب... وستملأ صوري الجرائدَ وشاشات التلفاز... ستحبينني يا هاغيت... فتعالي إليَّ...

كان "يوسف أبو دقة" أول القتلى الثمانية والجرحى الأربعين!!

o o o

في بيت يوسف وعلى مدى عشرة أيام ظللتُ جالسةً وقد فرض عليَّ وعلى جميع سكّان قطاع غزَّةَ منعُ التَجوُل... أحسستُ أنَّ ركبتيَّ قد تعوَّدتا الثنيَ وأنهما بحاجة إلى التدريب للمشي.. زهقتُ أكْلَ الزَّعتر والزيتون والعدس... واشتهيتُ أنْ أمشي في أي شارعٍ أو سوق أو أمام الدكاكين... استنفَدَ الأطفالُ ألعابَهم وخناقاتهم مع أهلهم وأقرانهم وأصبحوا في سجن كبير محزن.. اليومَ فقط عرفتُ مدى صعوبة قرار منْعِ التجوُل..

سمعْتُ قصصاً في هذه الأيَام العشرة لو أكتُبها لاحتجت إلى عشرات الكُتب والأوراق. قصص عن الأبطال والشهداء والمعتقلين والوطن... قصصٌ عن القائد المحبوب "أبو جهاد" خليل الوزير... قصصٌ عن الانتفاضة والحجارة والأعلام الفلسطينية... قصص عن مستشفى الشفاء والمستشفى الأهلي ومعاملة اليهود للمرضى والأطباء والمرضين.. قصصٌ عن الفقر والمعاناة والتَّعب.. كلُّ فرد في غزةَ له قصةٌ مع الاحتلال...

منذُ بدأ الاحتلالُ الإسرائيليُّ لغزة بدأت المشاكلُ فيها... ومنذُ بدأت الانتفاضةُ رفع أبناء الشَّعب العربيِّ في فلسطين صوتَهم عالياً.. إنَّهم يريدون بناء دولتهم بأنفسهم.. لا يريدون رؤية جنود الاحتلال ولا دباباته ولا طائراته، لا يريدون رؤية ابنائهم في السجون أو قتلى في الشوارع... ولذلك فهم يحاربونَ الوجودَ العسكريَّ الإسرائيليَ.. فهل يلوم أحدٌ أحمد وقد تلثم وطعنَ جندياً اسرائيلياً في غزَّةَ انتقاماً لمقتل والده؟ هل يلوم أحد ماجد وأصحابُ البيّارات وأبناء الصيَّادينَ على مهاجمة مقر الحاكم العسكري؟ هل سيلومُ أحدٌ أم إبراهيم وقد رمتْ حجارتها على الدورية العسكريَّة الإسرائيليَّة؟!

○ ○ ○

المراجع :

١ ـ كتاب الانتفاضة ـ مقدمة... وقائع تفاعلات آفاق : تأليف أسعد عبدالرحمن ـ نواف الزرو/مؤسسة الأبحاث العربية.

٢ ـ جريمة الأحد الأسود : قراءة تحليلية توثيقية تأليف حلمي الأسمر/إصدار دار الدليل الوطني... عمان.

٣ ـ كتاب أبو جهاد : أسرار بداياته وأسباب اغتياله ـ تأليف د. محمد حمزة/المؤسسة العربية للناشرين المتحدين.

٤ ـ الموسوعة الفلسطينية : مدينة غزة.

٥ ـ كتاب قطاع غزة ـ تأليف عبدالله أحمد الحوراني ١٩ عاماً من الاحتلال ـ دار الكرمل للنشر والتوزيع.

٦ ـ مدن فلسطين/غريب الديار في الديار ـ حاتم محي الدين أبو السعود.

٧ ـ أحداث غزة اليومية من الإذاعة والتلفاز والصحف اليومية.

٨ ـ مقابلات مع أربع من عائلات غزة المقيمين فيها والمشردين عنها...

شكر وتقدير

* تمت مناقشة الكتاب إثر قراءة مخطوطته مع مجموعة من الأطفال من المدارس الخاصة وبعض المدارس الحكومية والوكالة في عمان ومخيم البقعة وماركا وحطين... وبإشراف عدد من المهتمين بثقافة الطفل : الدكتور فخري طمليه، الدكتور عماد زكي، السيدة عائشة عودة، السيدة علوية هاشم، السيد وضاح زقطان، والسيدة رضا عزالدين وبوجود المسؤولات عن مراكز الأطفال في جمعية أصدقاء الأطفال.

كما قرأ المخطوطة وأبدى رأيه فيها الدكتور عبدالرحمن ياغي، السيدة فاطمة الفرخ القباني والسيدة فائقة أبو خضرة.

فلكل واحد من هؤلاء شكري الخالص.

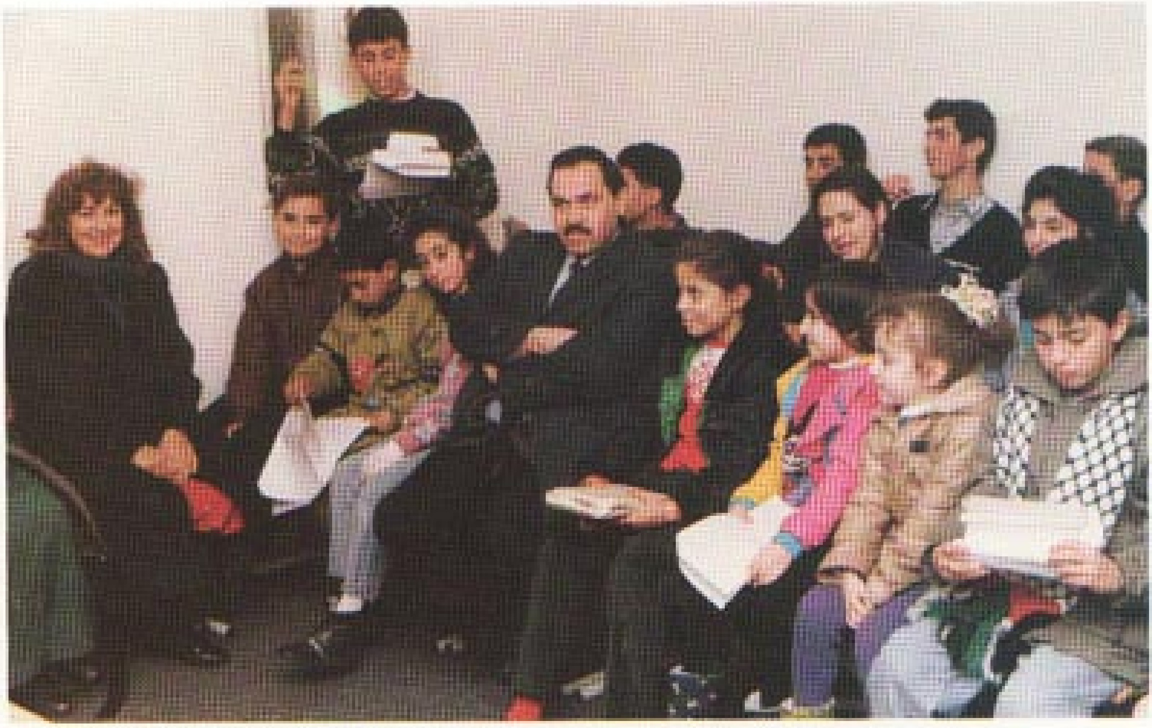

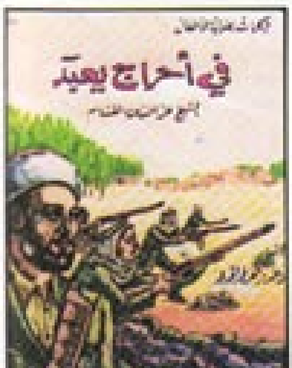
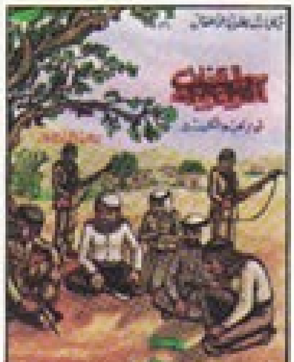
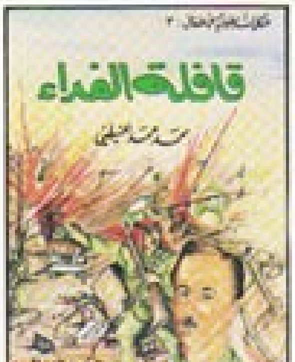

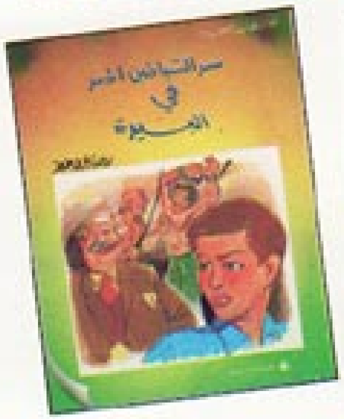
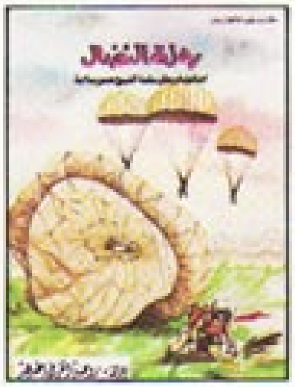

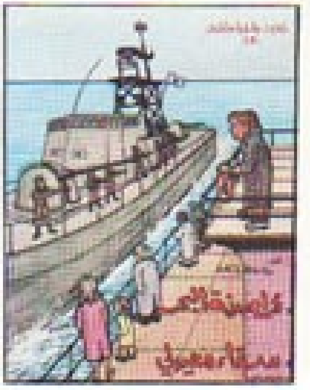
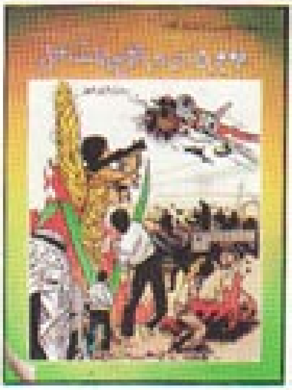
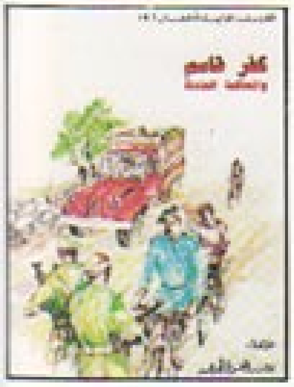

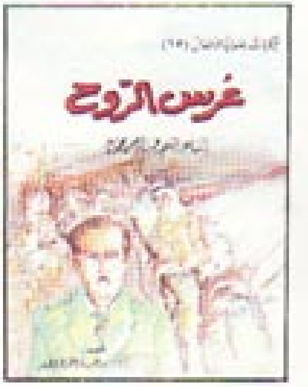

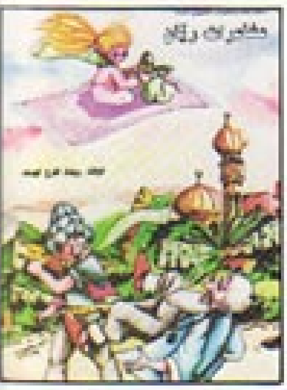
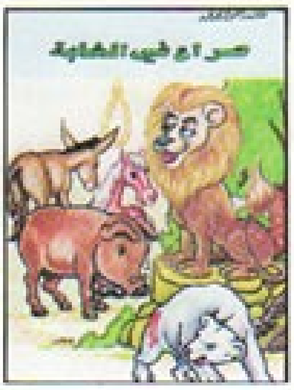

تطلب هذه الكتب من

دار كندة للنشر والتوزيع

الأردن ص ب ٤٥ تلاع العلي هاتف ٦٥٧٠٣٠

ومن المؤلفة روضة الفرخ الهدهد

ص ب ٤٤٦ عمان - الأردن

هاتف ٨١٩٢٨٢ فاكس ٨٢٢١٤٥

مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية
JORDAN PRESS FOUNDATION

السعر: دينار واحد